

ملخص

- لقد تناول هذا البحث بالتفصيل جهود الحكم المستنصر في تطور الحركة العلمية في الأندلس وقد أمكن حصر جهوده في الآتي :
- ١ - اقراره مبدأ الزامية التعليم : حيث أقام عددا من الكتاتيب حول مدينة قرطبة ، وتعهدت الحكومة الأندلسية الانفاق على هذه الكتاتيب .
 - ٢ - تشجيعه لعلماء الأندلس على التأليف : وذلك بتقديمه لهم كل عون ومساعدة ، كتزويدهم بالمعلومات اللازمة ، والكتب التي تستخدم عملية البحث ...
 - ٣ - احترامه للعلماء : فقد حدثتنا المصادر الأندلسية أن الحكم المستنصر قدر العلماء حق قدرهم ، ففرهم منه واتخذ منهم الوزير والصديق والتدبير .
 - ٤ - اهتمامه بخزائن الكتب : فقد أكثر من جلب الكتب ، وأنفق في اعلاقها المال الكثير ، حتى أصبح لديه ثالث أكبر خزانة كتب في العالم .
- فالحكم بانجازاته تلك ، قد أسهم بنصيب في تطور الحركة العلمية في بلاده ، ليس في الفترة التي أنجزت فيها أعماله فقط ، بل ولفترات لاحقة .

توطئة :

إن تطور الحركة العلمية في أي قطر كان ، لا يقوم على جهود عالم واحد ، بل يعتمد على جهود مجموع علماء ذلك القطر ، حيث يقدم كل عالم ما عنده ، وإذا ما تضافرت الجهود وصدقت النيات فإن هذا يؤدي الى التطور نحو الأفضل ، فالقالي على سبيل المثال كان رائد الحركة اللغوية في الاندلس في القرن الرابع الهجري وكانت له مشاركة في تطور الحركة اللغوية هناك ، الا أنه من الاجحاف بمكان أن ننسى جهود معاصريه في هذا المجال ، أمثال محمد بن يحيى الرباحي ، والطبيخي وليد بن عيسى بن حارث ت ٣٥٢ هـ ، وابن القوطية محمد بن عمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن مطروح ومحمد ابن الحسن الزبيدي الاشبيلي ت ٣٧٩ هـ وأحمد بن ابان بن سيد ت ٣٨٢ هـ ، وهارون بن صالح بن جندل ت ٤٠١ هـ وغيرهم ، حيث ساهموا بنصيب وافر في رقي الحركة اللغوية وتطورها في الأندلس ، وكذلك بالنسبة للحكم المستنصر ، فإن حبه لأبناء شعبه ، ورغبته في رفع مستواهم العلمي ، اضافة الى رغبته الشديدة في منافسة حكام المشرق وتقليدهم عن طريق الاهتمام بالعلم وتكريم أصحابه ، ومما ساعده على ذلك استقرار أحوال بلاده سياسياً وانتعاش دولته اقتصادياً كل هذه الأمور دعت الى القيام بعدة أعمال أدت الى

تطور الحركة العلمية في بلاده ، دون إهمال لجهود الآخرين في هذا المجال ، ومن أعماله الرائدة في هذا المضمار ما يلي :

- ١ - اقراره مبدأ إلزامية التعليم : وذلك بإقامته عدداً من الكتاتيب حول مدينة قرطبة وفي نواحيها ، وبالتالي تعهد الحكومة الأندلسية بالانفاق على هذه الكتاتيب من قبيل دفع أجور المعلمين ، وإطعام المتعلمين وغير ذلك ، مما يرغب الآباء في دفع أبنائهم الى طلب العلم .
- ٢ - تشجيعه علماء الأندلس على التأليف : وذلك بتقديمه لهم كل عون ومساعدة كتزويدهم بالمعلومات اللازمة ، والكتب التي تخدم عملية البحث ، اضافة الى ارشاده بعضهم الى الكتب التي تفتقر اليها المكتبة الأندلسية ، ورسمه المنهج الذي يحسن بهم اتباعه عند وضع هذه الكتب .
- ٣ - احترامه للعلماء : فقد قدرهم حق قدرهم وقربهم منه متخذاً من هؤلاء العلماء الوزير والصدیق والنديم ، وقد قابل علماء الأندلس احترام الحكم باحترام زائد ، فنسجوا الكتب بأسمه واهدوها اليه ، وسعوا الى طلب رضاه من خلال اخلاصهم في عملهم .
- ٤ - اهتمامه بخزائن الكتب : لقد حاول الحكم أن يكون قدوة شعبه في هذا المجال فأكثر من جلب الكتب وانفق في اعلاقها المال الكثير حتى أصبح لديه ثالث أكبر خزانة كتب في العالم الاسلامي .

وبعد ، فالحكم بانجازاته السابقة قد أسهم بنصيب في رقي وتطور الحركة العلمية في بلاده ، ليس في الفترة التي أنجزت فيها أعماله فقط ، بل ولفترات لاحقة .

أولاً : حياته :

١ - ولادته وخلافته ووفاته :

اهتم المؤرخون قديماً فيما اهتموا بالتاريخ لولادة الحكام ووفاتهم لهذا كان الصدق والأمانة يلفان هذه التواريخ ، والحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد من أشهر خلفاء بني أمية في الأندلس ، وعليه فلن يجد الباحث صعوبة حين يرغب في التاريخ لولادته ، فقد ولد في العام ٣٠٢ هـ وذلك يوم الجمعة مستهل رجب وقت آذان الظهر ، ووالده هو الذي لقبه

بالمستنصر منذ صغره^(١).

واعتلى الحكم سرير الملك في اليوم الثاني لوفاة أبيه^(٢) وذلك يوم الخميس ثلاث خلون من رمضان سنة خمسين وثلاثمائة^(٣) وقام بأعباء الملك اتم قيام ، وانفذ الكتب الى الافاق بتمام الأمر له ، ودعا الناس الى بيعته ، واستقبل من يومه النظر في تمهيد سلطانه ، وتهييف مملكته ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده^(٤) ، وكان أول عهد أنفذه - بعد أن أخذ البيعة - النظر في الزيادة في المسجد الجامع بقرطبة^(٥).

وقد ولي الخلافة وهو ابن سبع وأربعين سنة^(٦) ، وكانت ولايته منذ بويج له الى أن مات خمس عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام^(٧) ، وإذا ما علمنا أن مدة خلافة والده كانت حوالي خمسين سنة أيقنا أن خلافته كانت قصيرة مقارنة بوالده ، فقد استغرقت خلافة أبيه الطويلة عمره ، حتى كان يقول الوالد لولده فيما يحكى عنه : « لقد طولنا عليك يا أبا العاصي »^(٨).

وتوفي - رحمه الله تعالى - بقصر قرطبه ليلة الأحد ، ثلاث خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة ، وعمره يوم وفاته ثلاث وستون سنة ، وسبعة أشهر^(٩).

٢ - أخلاقه :

لعل المطلع على ترجمة حياة الحكم المستنصر في كل الكتب والأسفار التي تحدثت عنه ، يلاحظ أن أقلام أصحابها كانت تدور حول مدحه والثناء عليه ، فقد أجمعوا أنه كان حسن السيرة ، صافي السريرة رقيقاً بالرعية ، فاضلاً عادلاً ، من أهل الدين والعلم ، وقد تشدد في إبطال الخمر في مملكته

١ - ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب ، ٤ ج ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، دار الثقافة - بيروت : ١٦٦ / ٢ .

٢ - المقرئ : أحمد بن محمد المقرئ التلمساني : نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ٧ ج تحقيق الدكتور احسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٨ م : ٣٨٦ / ١ .

٣ - ابن الأبار القضاعي : الحلة السرياء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ٢ ج الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٦٣ م : ٢٠٠ / ١ .

٤ - المقرئ : نفخ : ٣٨٦ / ١ .

٥ - ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب : ٢ / ٢٣٣ .

٦ - الضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي : بغية الملمس في تاريخ رجال اهل الأندلس ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٧ : ١٨ .

٧ - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، لجنة احياء التراث الاسلامي ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣ م : ٥٩ .

٨ - ابن الأبار : الحلة السرياء : ١ / ٢٠٠ والمعجب في تلخيص اخبار المغرب : ٧١ .

٩ - ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب : ٢ / ٢٣٣ ، ونفخ الطيب : ٣٩٦ / ١ .

تشدداً عظيماً ، فرام قطعها من جذورها ، فأمر بإراقتها ، ثم شاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله ، ففيل له ، يعلمونها من التين وغيره ، فتوقف عن ذلك ، وفي أمره بإراقة الخمر في سائر الجهات يقول أبو عمر بن يوسف بن هارون الكندي قصيدته المشهورة فيها متوجعاً لشاربيها ، وانما نود ذكر بعض أبياتها تحقيقاً لما ذكرناه عن قوة إيمان الحكم وحسن أخلاقه وهي قوله :

بخطب الشاربين يضيق صدري وترمضني بليتهم لعمري
أعشاق المدامة أن جزعتم لفرقتها فليس مكان صبري
سعى طلابكم حتى أريقت دماء فوق وجه الأرض تجري
تضوع عرفها شرقاً وغرباً وطبق أفق قرطبة بعطر^(١٠)

وفي رأي أن إنساناً يقضي جل وقته بين أروقة مكتبته مطالعاً ومعلقاً ومنقباً ، ويحضر مجالس العلماء ورواة الحديث يسمع منهم ويروى عنهم ، لا بد وأن يكون دمث الأخلاق فاضلاً .

٣ - أساتذته :

باديء ذي بدء أجد مناسباً تقديم نبذة قصيرة عن تعليم أبناء الخلفاء في الأندلس تكون توطئة للعنوان الرئيسي هنا ، كان تعليم أولاد الخلفاء والأمراء والقواد في الأندلس يختلف عن تعليم أبناء العامة ، فقد كانت سنة الخلفاء والأغنياء احضار المؤدبين الى قصورهم وإفراد غرف خاصة يعلمون فيها أبناءهم^(١١) . فكثيراً ما نسمع أن بعض العلماء قد أدب أبناء أحد الخلفاء وأن بعضهم الآخر قد اختص بابناء الاغنياء وتأديبهم^(١٢) . وكذلك بالنسبة للمواد الدراسية فمن البديهي أن الخلفاء كانوا يأخذون أولادهم في مسار علمي أوسع وأدق من عناية البيت الأندلسي بصورة عامة ، صحيح أن هناك تشابهاً بين المواد العلمية التي يتعلمها الأندلسيون في الكتابات وحلقات المساجد ، وتلك التي تدرس في القصور ، الا ان هناك حذفاً أو اضافة استجابة لتوجيه

١٠ - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب : ٦٧ .

١١ - ابن حيان القرطبي ، أبو مروان ابن حيان : المقتبس من انباء اهل الاندلس ، قطعة خاصة بالمستنصر بالله نشرها الدكتور عبد الرحمن الحججي ، دار الثقافة بيروت ١٩٦٥ : ١٣٣ .

١٢ - الزبيدي ، أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف مصر ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٣ : ٢٥٥ .

وابن الفرضي ، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف : تاريخ علماء الاندلس ، ٢ ج الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ ، ٣٤٥/١ .

الوالد ، وتمشيا مع رغبته في اعداد أولاده اعداداً خاصاً يناسب الأهداف والمسؤوليات التي ستواجهه في مستقبل حياته ، فولد الخليفة مرشح لان يخلف والده في ادارة البلاد ، فلا بد له من الاطلاع على بعض العلوم التي يجهلها أبناء سنه ، وفهمها في أقصر مدة ممكنة ، وهناك مواد منع الخلفاء عامة الشعب من دراستها أو مجرد الاطلاع عليها وتدارسوها هم في بيوتهم ، مثل الفلسفة والتنجيم (١٣) .

وانطلاقاً من هذا الفهم لطريقة تدريس أبناء الخلفاء نستطيع القول : لقد تتلمذ الحكم المستنصر على يد نخبة من العلماء الأندلسيين احضروهم الى قصره وأفاد منهم ، ومن هؤلاء العلماء قاسم بن أصبغ ، وأحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني ، وزكريا بن خطاب حيث أكثر الأخذ عنه ، كما أجاز له ثابت بن قاسم ، وعندما وفد القالي على الأندلس اختص أول الأمر بالحكم فأدبه وأفاده (١٤) .

ويمكننا القول أيضاً : إن الحكم في مراحل حياته التعليمية قد تتلمذ على يد هؤلاء ، وربما على يد الكثيرين غيرهم ، الا أنه من جانب آخر كان يعتمد على تثقيف نفسه بنفسه ، إذ كان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي النائية باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه (١٥) ، وكان ذا غرام بها ، وقد أثر ذلك على لذات الملوك ، فكانت المحصلة النهائية ان اتسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته .

٤ - منزلته العلمية :

استطاع الحكم المستنصر برغم انهاكته بأمر البلاد والعباد أن يفسح لنفسه مجالاً وأن يتبوأ منزلة علمية رفيعة بين علماء الأندلس ، شهد له بها معاصروه ومن جاء بعدهم من العلماء ، شهدوا له بها دون التفتات لمنصب أو جاه وأجمعوا بالدليل القاطع والبرهان الساطع ، انه كان عالماً أحوذيا بالرجال والأخبار والأنساب ، وفوق ذلك كله أنه ثقة فيما ينقله وللتدليل على ما ذهبنا اليه نورد نصاً أورده كل من أرخ للحكم ، ولكن بعبارات مختلفة ، حيث يمكننا من خلاله معرفة ما استطاع الحكم تحصيله من علوم ، وكيف استحق نتيجة لهذا أن يكون مؤرخاً نسيج وحده ، مصدرأثراً يعاب على كل من أرخ لعلماء الأندلس ممن عاصروه أو جاءوا بعده ، ولم يعتمدوا

١٣ - المقرئ : نفع الطيب : ٢٢١/١ .

١٤ - عبد الواحد المراكشي : المعجب : ٥٩ ، ونفع الطيب : ٣٩٥/١ .

١٥ - المقرئ : نفع الطيب : ٣٨٥/١ - ٣٨٦ و ٣٩٤ - ٣٩٥ .

ملاحظاته وتعليقاته المتعلقة بأنسب الرجال وقبائلهم وتاريخ وفاتهم وفيما يلي ذاك النص .

وكان مع هذا كثير التهمم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفؤاندها ، وقلما تجد له كتابا كان في خزائنه الا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم : يقرؤه ويكتب فيه بخطه - أما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به ، ويذكر أنساب الرواة له ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده ، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن . وكان موثوقاً به مأموناً عليه ، صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الاندلسيين وأئمتهم ، ينقلونه من خطه ويحاضرون به وقد اجتمع لابن الابار من ذلك جزء مفيد مما وجد بخطه ، ولمس ابن الابار - وهو المؤرخ المدقق - انه يشتمل على فوائد جمّة في أنواع شتى ، وكان قد قيد كثيراً من أنساب أهل بلده ، وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أحمل ذكره قبل ولايته ، وان يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك ، ويؤلف من الكتب ، ويرد كل ذي نسب الى نسبه ، وفرج ذلك بالعلم فتم له من ذلك ما أراد ، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد (١٦) .

٥ - أدبه :

لم يكن الحكم المستنصر مكثراً لقرض الشعر كجده عبد الرحمن بن معاوية على سبيل المثال ، وان كان متذوقاً له ناقداً لعله بل كانت تمر به لحظات تفيض بها شاعريته بعدة أبيات يعبر من خلالها عما يختلج في صدره من حزن أو شوق أو مسرة ، ومن ذلك قوله متشوقاً لزوجته صبح البشكنسية لما خرج لغزوته الفذة المعروفة بشتاستين ، فأكثر من التعلق به ، والوله لفراقه ، وكان شديد الكلف بها ، فتأثر بها رآه ، وشعر به أيما شعور ، فترنم بأبيات رقيقة صور من خلالها مشاعره واحساساته تجاهها ، فهو لفرط حبه لها يحن إليها وهي معه ، كيف استطاع ان يعيش لحظات الوداع ولم يمت :

وأسأل شوقاً عنهم وهم معي
ويشكو الهوى قلبي وهم بين أضلعي
وكيف انثنت عند الفراق يدي معي
ويا كبدي الحرى عليهم تقطعي (١٧)

ومن عجب اني احن اليهم
وتبكي دما عيني وهم في سوارها
عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت
فيا مقلتي العبرى أفيضي عليهم

١٦ - ابن الابار : الحلة السرياء : ٢٠٢/١ - ٢٠٣ .

١٧ - ابن الابار : الحلة السرياء : ٢٠٤/١ والمعجب : ٦٦ ، ونفح الطيب : ٣٩٥/١ .

ولم يكن الحكم في أبياته تلك أول من تشوق الى عزيز عليه ووصف لحظة الوداع ، فهناك من سبقه من الشعراء الذين قالوا في ذلك شعراً جميلاً ، ولكن أبيات الحكم تعد من بينها في الطليعة .

وللحكم أيضاً في المعنى ذاته تقريبا :

الى الله أشكو من شمائل مُسرف علي ظلوم لا يدين بها دنتُ
نأتُ عنه داري فاستزاد صُدوده واني علي وجدي القديم كما كُنت
ولو كنتُ أدري أن شوقي بالغُ من الوجد ما بُلغته لم أكنُ بنتُ (١٨)

أما بالنسبة لنثره الفني ، فلم يكن الحكم - أيضا - مكثراً في هذا المجال ، ولا أخال هذا لضعف فيه ، وانما لانهاكه في ادارة دفة الحكم ، إذ جرت العادة في الأندلس أن يعين الحاكم كتاباً يتولون كتابة رسائله الى ولايته وحكام أقاليمه ، وذلك حتى يتفرغ الحاكم للأمر الجليل ، وبرغم ذلك فقد أتحننا صاحب نفع الطيب برسالة للحكم إبان ولايته للعهد ، كان قد وجهها الى الفقيه أبي ابراهيم اسحاق المالكي يطلب اليه فيها تبيان الأسباب التي أدت الى تخلفه عن حفل اقامة الناصر في قصره ، وجاء في رسالته : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك ، لما امتحن أمير المؤمنين مولاي وسيدي - أبقاه الله - الأولياء الذين يستعين بهم وجدك متقدماً في الولاية ، متأخراً عن الصلة ، على أنه قد أندرك - أبقاه الله - خصوصا للمشاركة في السرور الذي كان عنده لا أعدمه الله توالي المسرة ، ثم أندرت من قبل ابلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاقت عليك فيه المعذرة ، واستبلغ أمير المؤمنين في انكاره ومعاتبتك عليه ، فأعيت عليك عنك الحجة ، فعرفني - أكرمك الله - ما العذر الذي أوجب توقفك عن اجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذي سر به ورغب المشاركة فيه ، لنعرفه - أبقاه الله - بذلك ، فتسكن نفسه العريضة اليه ان شاء الله تعالى » (١٩) .

والمطلع على رسالة الحكم هذه يلاحظ أنها تميزت بعدة خصائص فنية منها :

١ - اتباع العادة المتعارف عليها في مثل هذا النوع من الرسائل واستهلالها بعبارات الدعاء مثل « حفظك الله وتولاك ، وسددك ورعاك » .

١٨ - عبد الواحد المراكشي : المعجب : ٦٦ .

١٩ - المقرئ : نفع الطيب : ٣٧٦/١ .

- ٢ - جمل قصيرة وغير مسجوعة أحياناً مثل : « لا أعدمه الله توالي المسرة ، ثم أنذرت من قبل ابلاغاً في التكرمة » .
- ٣ - الاكثار من الجمل الاعتراضية كي يتسنى له الدعاء للخليفة وملاطفة المرسل اليه ، كقوله : « على أنه قد أنذرك - أبياك الله - خصوماً للمشاركة في السرور ، فعرفني - أكرمك الله - ما العذر الذي أوجب توقفك ... »
- ٤ - اما لغته فقد كانت سهلة وواضحة المعنى .

وبعد ، فهذه نبذة موجزة عن حياة الحكم المستنصر حاولت من خلالها ابراز أهم الجوانب التي تخدم جزينات البحث .

ثانياً : تشجيعه أبناء الأندلس على طلب العلم :

لم يكن تشجيع الحكم المستنصر أبناء الأندلس على طلب العلم من خلال خطبة ألقاها على الناس من على منبر المسجد الجامع بضاحية الزهراء^(٢٠) ، بقربطبة ، أو من خلال كتاب وجهه الى حكام الأقاليم بل كان تشجيعه عبارة عن مجموعة أعمال جلييلة كان لها أكبر الأثر في حث الأندلسيين على طلب العلم ، منها :

١ - اقراره مبدأ إلزامية التعليم :

إن مبدأ مجانية التعليم وبخاصة في « مرحلة الكتابات » من المبادئ التي عمل على تحقيقها الحكم المستنصر قبل حوالي عشرة قرون ونصف ، وذلك عندما أمر بإنشاء مجموعة من الكتابات « أشبه بالمدارس الابتدائية في يومنا هذا » وجعل التعليم فيها مجاناً لأولاد الفقراء ، وتعهد بالانفاق عليها ، وتزويدها بكل ما تحتاج اليه من نفقات ، كأجر المعلمين ، وطعام المتعلمين ، واختيار مجموعة من العلماء لوضع مناهج للمؤدبين تتناسب وسياسة الدولة وإدراك الطالب وفي هذا يقول ابن عذاري المراكشي في حق الحكم المستنصر « ومن مستحسنات أفعاله وطيب أعماله اتخاذ المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين »^(٢١) كما امتدح ابن شخيص^(٢٢) صنيع الحكم هذا

٢٠ - الزهراء : ضاحية في قرطبة بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر ، واستغرق بناؤها خمساً وعشرين سنة .

٢١ - ابن عذاري : البيان المغرب : ٢ / ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٩ .

٢٢ - محمد بن شخيص : كان من أهل الأدب المشهورين ، ومن أعيان الشعر المتقدمين ، متصرفاً في القول ، سالكا في أساليب الجد الهزل ، مات قبل أربعين سنة ، راجع جذوة المقتبس ٩١ رقم ١٤٤ ، وبغية الملتبس ١٢٩ رقم ٢٧٦ ، والمغرب : ٢٠٨ / ١ .

فقال :

وساحة المسجد الأعلى مكلمة
لو مكنت سور القرآن من كلم
مكاتبا لليتامى من نواحيها
نادتك يا خير تاليها وواعيها^(٢٣)

وقد بلغ « عدد هذه المكاتب سبعة وعشرين مكتباً » موزعة على أنحاء مدينة قرطبة ، ثلاثة منها حوالي المسجد الجامع ، وباقيها في كل ريبض^(٢٤) من أرباض العاصمة قرطبة . ومن أجل دفع المؤدبين الى الاخلاص في تأديبهم أجرى عليهم المرتبات ، وعهد اليهم في الاجتهاد والنصح ، وفي العام ٣٦٤ هـ حبس الحكم ضريبة حوانيت السراجين بقرطبة على المعلمين لأولاد الضعفاء^(٢٥) ، وذلك كي يضمن هؤلاء المؤدبين رواتب ثابتة .

وبإمعاننا النظر في هذا الخبر الذي تناقله مؤرخو الأندلس فإننا نخرج بالملاحظات

التالية :-

أ - لقد كان الحكم المستنصر بصنيعه أول حاكم أندلسي يحقق مبدأ مجانية التعليم ، فالأندلسيون قبل الحكم كانوا « يقرءون جميع العلوم بأجرة »^(٢٦) ولعلمهم في هذه الناحية متأثرون بمذهب الامام مالك ابن أنس^(٢٧) الذي لا يعارض أخذ الأجرة على تعليم الصبيان^(٢٨)

ب - إن إعفاء الحكم المستنصر الصبيان من دفع الأجرة على التعليم في هذه المرحلة يكون قد أقر مبدأ الزامية التعليم ، فكونه قد اعفى الطلبة من القسط اضافة الى توفير المأكل لهم ، فإن هذا يشجع أولياء الأمور على إرسال أولادهم الى هذه الكتابيب للتعلم .

ج - إن إقبال الأندلسيين على طلب العلم في مرحلة الكتاب نتيجة لتشجيع الحكم لهم ، أدى إلى ظهور جيل متعلم اجتاز مرحلة الكتاب لينتقل الى مرحلة تالية وهي المرحلة

٢٣ - ابن عذاري : البيان المغرب : ٢/٢٤٠ ، ٢٤١ .

٢٤ - ارباض : مفردا ريبض ، وهو مجموعة البيوت التي تحيط بالمدينة وتعادل في مفهومنا القرية .

٢٥ - ابن عذاري : البيان المغرب : ٢/٢٤٩ .

٢٦ - المقرئ : نفع الطيب : ١/٢٢٠ ، وقد اطلق الأندلسيون على الأجرة « الحدقة » والحدقة ما يقدم للمؤدب حين يحذق صبيه تعليمه ، وورد في تاج العروس في « حذق » ما نصه : حذق الصبي القرآن أو العمل كضرب وعلم حذقاً وحذقاً وحذاقاً وحذاقاً وبكسر الكل ، أو بالكسر : الاسم اذا تعلمه كله ومهر فيه وفي حديث زيد بن ثابت : فما مرّ بي نصف شهر حتى حذقته واتقنته ويقال هذا يوم حذاقه بالكسر أي يوم ختمه القرآن .

٢٧ - انتشر مذهب الامام مالك في الأندلس زمن الأمير هشام الرضي على يد زياد بن عبد الرحمن اللخمي الملقب بشبطون .
وانتل ابو صالح : المذهب الفقيه في الأندلس .

٢٨ - د. أحمد فؤاد الاخواني : التربية في الاسلام ، ٥٦ ، ١٥٦ .

المسجدية ، وهذا بدوره يؤدي إلى انتعاش وتطور الحركة العلمية في الأندلس ، فقد ينبغ من هؤلاء الصبيان عدد من العلماء قد لا يبتسم لهم القدر لولا مساعدة الحكم لهم في مرحلة الكتاب ، ذلك لأن الطالب عندما ينهي هذه المرحلة يكون قد اتقن القراءة والكتابة وحفظ أجزاء من القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية ، واطلع على مبادئ علم النحو وغير ذلك ، وهذا القدر من المواد العلمية يصلح لأن يكون أساساً نافعاً لما سيأخذه في المرحلة القادمة (٢٩).

٢ - رفع مستوى التعليم في المساجد :

لم تقف جهود الحكم عند مرحلة الكتاب ، بل تجاوز ذلك الى المرحلة المسجدية ، إذ عمل على رفع مستوى التعليم في بعض المساجد ، وذلك باستدعائه عدداً من المؤيدين المشهورين والمشهود لهم في هذا المجال للتدريس في المساجد الكبيرة في قرطبة ، كي يفيد منهم أكبر عدد ممكن من المتعلمين ، وفي هذا الصدد تحدثنا المصادر الأندلسية أنه استدعى علي بن معاذ بن سمعان الرعيني من باجة، فأخذ عنه ثم جلس يحاضر في مسجد الزهراء (٣٠) ، كما استدعى لهذا الغرض، أبا بكر الزبيدي (٣١) ، وفي أيام ولايته للعهد، استدعى أبا علي القالي من المشرق الى قرطبة (٣٢) حيث جلس يملئ على طلابه مصنفاته التي منها كتابه الأمالي ، حيث أملاه في الأخمسة في المسجد الجامع بالزهراء (٣٣).

وبعد فاستدعاء الحكم لهذا النفر من العلماء قد أعفى عدداً من طلبة العلم في قرطبة - على أقل تقدير - من عناء السفر للتعلم على هؤلاء العلماء في أماكن تواجدهم ، وحبب اليهم في الوقت نفسه الأخذ عنهم ، فوجود القالي - على سبيل المثال - بينهم اعتبر من قبل الكثيرين فرصة طيبة للأخذ عنه ، فتسابقوا الى حلقاته حتى العلماء منهم، فما يروى في هذا الصدد أن الزبيدي عالم اللغة في الأندلس قبل قدوم القالي ، كان يجلس في حلقة القالي ويأخذ عنه اعترافاً منه بفضلته وعلمه (٣٤) اضافة الى هذا تنوع المواد الدراسية التي يأخذونها عنهم وازدياد عدد طلبة العلم ،

٢٩ - ابن عبدون : ثلاث رسائل اندلسية في ادب الحسبة والمحاسب : ٢٥ .

٣٠ - محمد المراكشي : الذيل والتكملة ، السفر الخامس - القسم الأول ٤١٠ .

٣١ - ابن سعيد : المغرب في حل المغرب : ٢٥٦/١ ، ونفح الطيب : المقرئ : ٧/٤ .

٣٢ - القالي : الامالي : ٣/١ .

٣٣ - المقرئ : نفح الطيب : ٧٤/٣ ، والامالي : القالي : ٣/١ .

٣٤ - عبد الواحد المراكشي : المعجب : ٦٠ .

وهذا بدوره يؤدي الى اتساع محصول هؤلاء الطلبة الثقافي وازدياد منافستهم ، مما ينعكس ايجاباً على انتاجهم ، فكلما كثر عدد العارفين والباحثين في فرع معين من فروع العلم تعمقت جذوره وصحت فروعه وسهل مطلبه وعمت فائدته .

٣ - مكافأة المتفوقين من الطلاب :

لقد ظهرت مكافأة الحكم لهؤلاء الطلاب بعد عودتهم من رحلتهم العلمية من بلاد المشرق ، فخصهم بوظائف عالية في الدولة وقرهم وجعلهم من خواصه ، فمحمد بن يحيى الرباحي بعد عودته من بلاد المشرق ، صار الى خدمة الحكم المستنصر يعمل في خزائنه ، ويقابل بين الدواوين الواردة على مكتبته ، وتوسع له الخليفة في النزل والجرابة^(٣٥) ومثله محمد بن يحيى بن مفرج الذي اتصل به بعد رحلته، وأصبحت له مكانة خاصة^(٣٦) .

ولعل مساعدة الحكم لطلبة الأمس في مرحلتي الكتاب والمسجد ومكافأة علماء اليوم ناتج عن رغبته في تطوير الحياة العلمية في الأندلس حتى يتمكن من منافسة حكام المشرق ، وقد عبر الحكم نفسه عن هذا المعنى صراحة في معرض ثنائه على خالد بن سعيد قائلاً : « إذا فاخرنا أهل المشرق بيحيى بن معين ، فاخرناهم بخالد بن سعد »^(٣٧) .

وتأكيداً لكل ما ذكر من تشجيع الحكم لأبناء الأندلس على طلب العلم نورد قول ابن الأبار فيه : « ولم يسمع في الاسلام بخليفة بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب ... افاء على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس في طلبه ... »^(٣٨) .

ثالثاً : تشجيعه علماء الأندلس على التأليف :

لقد أدرك الحكم المستنصر أن العلم في صدور العلماء قابل للنقصان بمرور الزمن فالذاكرة مهما جمعت من علوم ومعارف تظل خوانة ، كما أن الافادة من علم هؤلاء تبقى محصورة في مجموعة الطلاب الذين يأخذون عنهم سماعاً ، وكما يتلافى العالم خيانة الذاكرة ، وحتى تكون الفائدة من علمه أشمل وأوسع دائرة ، حثّ الحكم هؤلاء العلماء على التأليف منشطاً إياهم بوسع عطائه

٣٥ - الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين : ٣١٤ .

٣٦ - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس : ٩١/٣ - ٩٢ .

٣٧ - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس : ١٣٠/١ رقم الترجمة ٣٩٦ .

٣٨ - ابن الأبار : الحلة السرياء : ٢٠١/١ .

وشارحاً صدرهم بالافراط في الاكرام^(٣٩) ومقدماً لهم كل عون ومساعدة علمية ، ومنبهاً إياهم الى طبيعة العلوم التي تفتقر اليها خزائن الكتب في الأندلس فعندما وجد - على سبيل المثال - نقصاً في كتب تراجم الأعلام المتخصصين في اللغة والنحو طلب الى الزيبيدي عالم اللغة في الأندلس أن يؤلف كتاباً في طبقات النحويين واللغويين في المشرق والمغرب ، وحتى يخرج الكتاب على الشاكلة التي يريدونها فقد وضع للزيبيدي خطة بحث واضحة وأوسعها من روايته وحفظه ، فكان الكتاب المذكور الذي يُعدُّ من أفضل كتب تراجم النحويين واللغويين لدقته ، وحسن ترتيبه وغازاة مادته ، وفي هذا يقول الزيبيدي :

« وأمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله ، لما اختصه الله به ، ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب المعرفة ، والاحاطة بصنوف الفنون ، أمرني بتأليف كتاب يشمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين »^(٤٠) وعن الخطة التي وضعها كي يسير عليها قال : « فألفت هذا الكتاب على الوجه الذي حده » أما عن المعلومات التي كان يزوده بها نقلا عن بعض هؤلاء النحويين واللغويين والتي لم يكن الزيبيدي على علم بها قال : « وأوسعني من روايته وحفظه ، إذ هو البحر الذي لا تعبر أوأذيه ، ولا تدرك سواحله »^(٤١) .

ولم يكن الزيبيدي في مدحه للحكم مبالغاً ، فالمطلع على الكتاب يلاحظ دقة معلوماته ، وأحكام ترتيبه ، وسعة مادته وعمقها ، والفائدة التي يحصل عليها طالب العلم منه ، وبمقارنة هذا الكتاب بغيره من كتب التراجم المختصة والتي جمعت قبله وبعده بفترة يلحظ مدى الفرق بينها ، ويلحظ الجهد المبذول من الزيبيدي والحكم ، فقد كان الحكم في هذا الكتاب استاذاً مشرفاً ترك بصماته الملوكية على كل صفحة من صفحاته .

صحيح أن هذا الكتاب المذكور هو ثالث كتاب من نوعه حسب الأولوية الزمنية ، إذ جمع الأول أبو الطيب اللغوي ، ويلييه كتاب السيرافي أخبار النحويين ، الا أن منهج الزيبيدي فريد لم يسلكه أحد قبله ، ولا نهجه من جاء بعده مما جعله مصدراً أصيلاً في تاريخ النحو والمعاجم وفنون الأدب^(٤٢) .

٣٩ - عبد الواحد المراكشي : المعجب : ٦١ .

٤٠ - الزيبيدي : طبقات النحويين واللغويين : ٦٧ .

٤١ - الزيبيدي : المصدر نفسه : ١٨ .

٤٢ - الزيبيدي : طبقات النحويين : « المقدمة » : ٢ .

كما عمل الحكم على بث روح التعاون بين العلماء في التأليف فاذا ما كُتبت الجهود لانجاز عمل ما فان هذا يرفع من مستوى العمل المطلوب ، وبهذا يكون الحكم قد خط نهجاً قلماً سمعنا بمثله ، وهو اشتراك عالمين في تأليف كتاب واحد ، فقد عهد إلى كل من أحمد بن عبد الملك الأشبيلي ومحمد بن عبد الله القرشي المعيطي الى جمع كتاب له في رأي مالك بن انس اسمياه « الاستيعاب » من مائة جزء ، وعندما رفع الى الحكم سُرَّ بذلك ووصلهما وقدمهما الى الشورى (٤٣) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد كان هو نفسه يقوم بتصنيف الكتب ، فقد الف كتاب « انساب الطالبين والعلويين القادمين الى المغرب » ، وهو مرجع استعان به معظم الذين ارخوا لعلماء الاندلس (٤٤) .

ومما لا شك فيه أن تشجيع الحكم لعلماء الأندلس على التأليف قد أفاد الحركة العلمية في الأندلس على أكثر من صعيد فبالإضافة الى ما سلف ذكره ، فقد جعل علم العلماء في بلده في تجدد ونمو مستمرين، ذلك لأن عملية التأليف تستوجب من العالم الاطلاع والقراءة لكل ما كتب حول الموضوع الذي يبغى الخوض فيه ، حتى يدرك المدى الذي وصل اليه غيره ، ويحاول أن يأتي بشيء جديد لم يتطرق اليه أحد من قبله إن أمكن ، وهذا بالطبع يعود بفائدة كبيرة على طلبته ، فهناك فرق بين عالم يؤدب طلبته من كتابه الذي صنّفه وعالم يعتمد على كتاب لم يصنّفه ، وكذلك هناك فرق بين عالم يطلع على مؤلفات غيره أثناء التدريس ويحاول أن يفيد طلبته منها ، وآخر حصر نفسه في مادة محددة لا يتجاوزها .

وأضف الى هذا أن جمع العلوم في كتب يحول دون ضياعها ، فالكتاب يحفظ علم العلماء بعد وفاتهم ، وقد أدرك هذه الحقيقة من قبل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فبعد معركة اليمامة طلب الى الخليفة الصديق أن يقوم بجمع القرآن من صدور الرجال ، حتى لا تدفن آيات القرآن في صدور الحفظة عند استشهادهم .

وأخيراً فقد ظهرت فائدة خطوة الحكم هذه بعد تدمير بغداد على يد المغول في العام ٦٥٦ هـ ، إذ قام المغول بالقاء ، أعداد هائلة من المصنّفات العربية في نهري دجلة والفرات ،

٤٣ - ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك : الصلة ، ج٢ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ : ٢٣/١ .

٤٤ - المقرئ : نفح الطيب : ٦٠/٣ .

عندها كانت خزائن الكتب الأندلسية بها ضمتة من مؤلفات مشرقية واندلسية هي الأساس الذي بنى عليه المشاركة جل مؤلفاتهم ، وبخاصة علوم العربية .

رابعاً : احترامه للعلماء :

لم يكن احترام الحكم المستنصر لعلماء الأندلس مجرد تقليد لغيره من حكام المسلمين في المشرق والمغرب ممن قربوا علماء بلادهم وخصوصهم بكل غال ونفيس ، بل كان احترامه لهم طبعاً أصيلاً لديه ، فهو - كما مرّ بنا - عالم أفنى وقتاً طويلاً من حياته في مطالعة الكتب والافادة مما انتجته قرائح علماء المشرق والمغرب ، فعرف كم بذل هؤلاء العلماء من جهد ووقت ، وكم كابدوا وجاهدوا حتى وصلوا الى هذه المرحلة ، فهو إذن يقدر العلماء ويجلهم كونه عالماً جالسهم وناظرهم وللتدليل على اجلاله وتقديره لهم نورد هذه الحكاية : قيل : أن الفقيه أبا ابراهيم اسحاق كان يحاضر في مسجد أبي عثمان ، وكان مجلسه حافلاً بجماعة الطلبة ، اذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم المستنصر ، فسلم وقال له : يا فقيه أجب أمير المؤمنين، فإن الأمر خرج فيك ، وها هو قاعد ينتظرك ، وقد أمرت باعجالك ، فقال له : سمعاً وطاعة لأمر المؤمنين ولا عجالة ، فارجع اليه وعرفه عني ، انك وجدتي في بيت من بيوت الله تعالى، معي طلاب العلم اسمعهم حديث ابن عمّة رسول الله - ﷺ - فهم يقيدون عني ، وليس يمكنني ترك ما انا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا الله وطاعته ، فذلك أوكد من مسيري اليه الساعة ، فإذا انقضى أمر من اجتمع إليّ مشيت اليه وظل علمنا يمهل الخليفة حتى اتم مجلسه على أحسن وجه ، وعندما أراد الذهاب الى قصر الخليفة استدعى الخصي وقال له : أنا أضعف عن المشي الى باب السدة ، ويصعب عليّ ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعضائي ، وباب الصناعة أقرب وأرفق بي ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بفتحه لأدخل اليه منه هوّن عليّ المشي ، فأجاب الخليفة لطلبه ، وأمر بفتح الباب ، ومضى الى الحكم وقضى حاجته من لقائه ، ثم صرفه على ذلك الباب، فأعيد اغلاقه على أثر خروجه (٤٥).

وقد اعفانا المقرّي الذي أورد هذه الحكاية التعليق عليها ، حيث قال معقّباً بكلام بليغ :

« فهكذا تكون العلماء مع الملوك والملوك مع العلماء » .

ومنها استقباله لأبي علي القالي عندما وفد على الأندلس ، فقد كان على رأس مستقبله على مشارف قرطبة ، وقد كان بمقدوره - وهو ولي العهد - أن يعفي نفسه مشقة السفر ، وأن يكتبني بإرسال نخبة من علماء الأندلس لاستقباله ، ولكنها همة العلماء وأخلاقهم^(٤٦) .

على أن احترام الحكم لهؤلاء العلماء لم يذهب هباء ، بل قوبل باحترام زائد أيضاً ، وقد عبّروا عن احترامهم هذا بتأليفهم الكتب واهدائها له ، وهم في حالة لا ينتظرون منه مناً ، ولا يبتغون شكراً ، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء أبو علي القالي ، حيث طرز كتابه الشهير « الأمالي » ، باسم عبد الرحمن الناصر ، واسم ولده الحكم المستنصر ، وفي إهدائه يقول : فإني لما رأيت العلم أنفس بضاعة ، أيقنت أن طلبه أفضل تجارة ، فاغتربت للرواية ، ولزمت العلماء للدراية ، ثم اعملت نفسي في جمعه ... ثم صنته بالكتبان عمن لا يعرف مقداره ، ونزهته عن الاذاعة عند من يجهل مكانه ، وجعلت غرضي أن أودعه من يستحقه ... فعبرت برهة التمس لنشره موضعاً ... ومكثت دهرًا أطلب لاذاعته مكاناً ... حتى تواترت الأنباء المتفكة ... التي لا تخالطها الشكوك ... بأن مشرفه في عصره أفضل من ملك الوري وأكرم من جاد باللهمي فياض الندى ... أمير المؤمنين « عبد الرحمن بن محمد » و ... المنيل قبل أن يستنال « الحكم ولي عهد المسلمين وابن سيد العالمين ... »^(٤٧) .

وليس من باب المبالغة إذ قلنا : يعتبر الحكم المستنصر في مقدمة حكام الأندلس الذين حازوا احترام العلماء وتقديرهم له وتقريهم اليه عن طريق اهدائهم له القيم من أعماهم ، وذلك من لدن شبابه حتى مماته ، فأحمد بن عبد ربه جمع له كتاب « العقد » في الأخبار ، وهو كتاب كبير مقسم على معان ، وقد سمي كل قسم منها باسم من أسماء نظام العقد ، كالواسطة ، ونحوها^(٤٨) كما ألف له محمد بن يوسف الوراق « في مسالك أفريقية وممالكها ديواناً ضخماً ، وفي أخبار ملوكها وحروبهم والقائمين عليها كتباً جمة »^(٤٩) ، وكذلك فعل عيسى بن أحمد بن محمد الكتاني ، فقد ألف للحكم المستنصر تاريخاً ممتعاً^(٥٠) .

٤٦ - المقرئ : نفع الطبيب : ٧٢/٣ .

٤٧ - القالي : أبو علي أساعيل بن القاسم القالي البغدادي : الامالي الطبعة الثانية ١٣٤٤ هـ = ٩٢٦ م مطبعة الكتب المصرية القاهرة ج ٢ : ١/١ - ٢ .

٤٨ - ابن عبد ربه ، أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد : ج ٣ / ١/٣ . والحميدي ، أبو عبد الله حمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي الحميدي : جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ : ١٠١ والضبي ، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي : بغية الملتبس في تاريخ رجال اهل الأندلس ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧ : ١٤٨ .

٤٩ - ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة : ٣٦٦/١ و ٦٧١/٢ .

٥٠ - محمد المراكشي : الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة : السفر الخامس - القسم الثاني : ٤٩١ .

ولم تقتصر عادة اهداء الكتب والتأليف له على علماء المسلمين فحسب بل شاركهم هذا الاعجاب وذاك الاحترام معظم طوائف المجتمع فقد قيل : ان أسقفا من الاساقفة المسيحيين في قرطبة أهدى الى الحكم المستنصر تقويماً للأعياد المسيحية الاسبانية ^(٥١) ، والحكم المستنصر بتقديره لعلماء بلده ومقابلة هؤلاء العلماء بتقديره بتقدير زائد فإن هذا التقدير المتبادل ساهم بشكل فاعل في تطوير الحركة العلمية في الأندلس، فهناك فرق شاسع بين عطاء عالين أولها يعطي ويصادف في الوقت نفسه من يقدر جهده وعمله، وثانيهما يعطي ولا يجد من يقدر عطاءه فالأول سيزداد عطاؤه ، بخاصة وأن أرفع مقام في الدول يحسى ويشجع هذا العطاء ، وهذا بحد ذاته خير دافع له ، في حين سيصاب الثاني بالايجاب والانتقطاع ، وقد لمسنا صدق ما ذهبنا اليه لدى القالي وابن عبد ربه وعيسى بن أحمد الكتاني ، فلولا تقدير الحكم لمجهودهم ، وقراءته بل واهتمامه بمؤلفاتهم عن طريق تعليقه على بعض المسائل ومناقشتهم بها ^(٥٢) لما قاموا بهذه الأعمال النافعة ، أو على أقل تقدير لما خرجت بهذا الزخم العلمي .

لقد كانوا - بحق - في سباق مع الزمن والجهد لاجراء أفضل ما عندهم له ، ولم لا ؟ ! وهو الخليفة العالم الذي اختار سماره وخلصاه ووزاره من أهل الأدب والشعر ... ^(٥٣) .

ومما لا شك فيه أن هذه الكتب أسهمت بشكل واضح في تطوير جانب من جوانب الحركة العلمية في الأندلس فبذور الحركة اللغوية الحقّة - على سبيل المثال - في الأندلس إنما تم غرسها بجهد القالي فقد « كان أماماً في علم اللغة متقدماً فيها متقناً لها ، فاستفاد الناس منه ، وعولوا عليه ، واتخذوه حجة فيما نقله ، وكانت كتبه على غاية التقييد والضبط والاتقان ، وقد ألف في علمه الذي اختص به تواليف مشهورة تدل على سعة روايته وكثرة اشرافه ، وأملى كتاباً سباه « النوادر » يشتمل على أخبار وأشعار ولغة ، سمع منه جماعات وحدثوا عنه ... » ^(٥٤) .

أما بالنسبة لكتابه « النوادر » بالذات فيقول ابن خلدون فيه مادحاً : وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانها - يعني علم الأدب - أربعة دواوين ، وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي

٥١ - خوليان ريبيرا : المكتبات وهواة الكتب في اسبانيا الاسلامية : ٨٨/١ .

٥٢ - عبد الواحد المراكشي : المعجب ٦١ .

٥٣ - عبد الواحد المراكشي : المعجب : ٦٢ ، ومنهم : أبو الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفي ، وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي النحوي .

٥٤ - المقرئ : نفح الطيب : ٧٢/٣ .

علي القالي البغدادي ، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها فروع عنها^(٥٥) وكذلك بالنسبة لكتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه ، فعلاوة على المادة العلمية المتشعبة الفروع والأصول التي اشتمل عليها ، فهو بتأريخه لحياة ملوك الأندلس شعراً إنما مهد الطريق فسيحاً لعدد من العلماء ممن جاءوا بعده ، حيث نسجوا على منواله القصائد الطوال في تاريخ البشرية^(٥٦) والطب والقراءات القرآنية^(٥٧) والنحو العربي^(٥٨) .

خامساً : اهتمامه بخزائن الكتب :

أجمع مؤرخو الأندلس الذين ترجموا لحياة الحكم المستنصر أنه كان « جامعاً للعلوم ، محباً لها ، مكرماً لأهلها ، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك »^(٥٩) وقد ترتب على نشاطه الملحوظ في هذا المجال أن أصبح يمتلك خزانة الكتب الأولى في الأندلس ، وثاني أضخم ثلاث خزائن في العالم الاسلامي كله^(٦٠) ، وبلغ عدد مجلدات خزائنه أربعمئة ألف مجلد ، مرتبة أساؤها في فهرس ، بلغ عدد هذه الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب « أربعاً وأربعين فهرسة ، في كل فهرسة خمسون ورقة »^(٦١) .

واهتمام الحكم بجمع هذه الكتب راجع لكونه تلميذاً لأهمر المؤدبين في الأندلس ، كما أنه - حسب اشارة الروايات - كان عالماً بالمذاهب إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ .

أما بالنسبة لكثرة الكتب لديه فقد كان هدوء البلاد سياسياً وامتلاء خزائن الدولة بالأموال أثر فاعل في ذلك ، إذ مكنته هذا الاستقرار وذاك الثراء من شراء أضخم المجلدات وأنفسها وذلك بوساطة بعثات علمية أرسلها من الأندلس الى بلاد المشرق لاحضار ما هو جديد منها^(٦٢) .

- ٥٥ - ابن خلدون : عبد الرحمن : مقدمة ابن خلدون ، الطبعة الرابعة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت : ٥٥٣ - ٥٥٤ .
 ٥٦ - ابن بسام ، أبو الحسن علي بن بسام الشنبري : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق د. احسان عباس بيروت ، القسم الأول ، المجلد الثاني ٩١٨ - ٩٤٤ أرجوزة « أبو طالب عبد الجبار » .
 ٥٧ - أرجوزة ابن فيره في القراءات القرآنية « حرز الاماني ووجه التهاني » .
 ٥٨ - ألفية محمد جمال الدين بن عبد الله الطائي « ابن مالك » الجبائي توفي ٦٧٢ .
 ٥٩ - الضبي : بغية الملتبس : ١٨ .
 ٦٠ - القلقشندي : صبح الاعشى : ٤٦٦/١ - ٤٦٧ .
 ٦١ - ابن الابار : الحلة السرياء : ٢٠٣/١ ، ابن حزم : جمهرة انساب العرب : ١٠٠ ، ابن خلدون : العبير : ١٤٦/٤ .
 ٦٢ - ابن خلدون : العبير : ١٤٦/٤ .

والحكم باهتمامه هذا أفاد الحركة العلمية في الأندلس على أكثر من صعيد ، نذكر من ذلك تقليد الشعب الأندلسي الحكم في حب اقتناء الكتب ، لذا نرى أحدهم يراقب سوق بيع الكتب في قرطبة حتى تقع عينه على كتاب بحجم معين يضعه في مكتبته^(٦٣) ، فيشتريه دون أن يلتفت الى المادة التي اشتمل عليها هذا الكتاب ، اضافة الى هذا أن الحكم لم يحتفظ في مكتبته وبالتالي في كثير من خزائن الكتب في الأندلس الا بالنسخ المصبوطة المنقحة ، وقد تحقق له هذا بعد أن اختار مجموعة من علماء الأندلس المشهود لهم بالعلم الغزير بمقابلة الكتب الوافدة على خزائنه ، ومن هؤلاء محمد بن الحسين عالم اللغة والأدب ، فقد عمل في خزانة الحكم وتولى مع القالي مهمة مقابلة كتاب العين للخليل ، وفي ذلك يقول : « أمرنا المستنصر بمقابلة كتاب العين للخليل بن أحمد مع أبي علي اسماعيل البغدادي ، وابني سيد في دار الملك التي بقصر قرطبة وأحضر من الكتاب نسخاً كثيرة في جملتها نسخة القاضي منذر بن سعيد التي رواها بمصر عن ابن ولاد »^(٦٤) ، ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي ، حيث كان من أعلم الناس بالكتب وعللها والهجهم بجمعها وافرزههم لخطوطها^(٦٥) .

ومما لا شك فيه أن عمل المستنصر هذا ساعد العلماء وطلبة العلم على الاحتفاظ بنسخ صحيحة لكثير من المراجع اللغوية والأدبية وغيرها ، صحيح أن النسخ المصبوطة كانت بحوزة الحكم وعدد قليل ممن عملوا تحت أمرته ، الا أن الاتصال بهؤلاء العلماء ومقابلة بعض النسخ بما^(٦٦) لديهم ، أو التلمذ على أيديهم ليس من الصعوبة بمكان ، فقد كانوا يعملون الى جانب مهمة مقابلة الكتب في التدريس في مساجد قرطبة وبهذه الطريقة يكون الطالب قد حصل على كتاب صحيح المعلومات خال من أي تدليس أو تحريف .

وقد دفعته رغبته الجارحة في اقتناء الكتب أن أرسل بعثات على نفقته الخاصة الى الأقطار والبلدان مهمتها جمع الدواوين والدفاتر والبذل في اعلاقها أنفس الأثمن^(٦٧) وكانت النتيجة أن حملت اليه الكتب من كل جهة ، وكان من جملة ما حققته هذه البعثات أنها استطاعت شراء كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني حيث بعث الحكم الى الأصفهاني عن طريق هذه البعثات

٦٣ - المقرئ : نفع الطيب : ٤٦٢/١ - ٤٦٣ .

٦٤ - الحميدي : جذوة المقتبس : ٥١ .

٦٥ - ابن الأبار : التكملة : ٣٨٤/١ .

٦٦ - المقرئ : نفع الطيب : ٢٠/٢ .

٦٧ - ابن الأبار : الحلة السرياء : ٢٠٠/١ ، وتاريخ ابن خلدون : ١٦٤/٤ .

ألف دينار عينا ذهباً « فأرسل إليه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق أو ينسخه أحد منهم »^(٦٨) وكذلك فعل مع القاضي الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم وأمثال ذلك^(٦٩)، كما استطاعت هذه البعثات أن تقيم علاقات علمية طيبة بين الحكم وبعض علماء المشرق، تلك التي بين الحكم وأبي اسحاق محمد ابن القاسم بن شعبان بمصر، وأبي عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي وغيرها^(٧٠).

والحكم بإرساله تلك البعثات العلمية، واحضاره هذه المجموعات القيمة من الكتب أتاح الفرصة الى عدد من علماء الأندلس وطلابه الى الاطلاع على نخبة ممتازة من الكتب ما كان بمقدورهم الاطلاع عليها لولا جهود الحكم، كذلك نشطت هذه الكتب المحضرة حركة التأليف في الأندلس، إذ قام فريق من العلماء هناك بالتأليف على منوالها، كما فعل القاضي عند تأليفه كتاب « البارع » فقد سار على نهج الخليل في العين الا أنه « زاد على كتاب الخليل نيفاً واربعائة ورقة مما وقع في العين مهملاً فأملاه مستعملاً، ومما قلل فيه الخليل فأملى فيه زيادة كثيرة، ومما جاء دون شاهد فأملى الشواهد، فيه ... »^(٧١)، كما قام فريق آخر باختصارها وإزالة الشاذ منها، فالزبيدي اختصر كتاب العين للخليل، وأخرجه في صورة مرتبة فاقت الأصل، وفي هذا المعنى ينقل المقرئ: كان كتاب العين مختل القواعد فامتعض الزبيدي له، « وصقل صدأه كما يصقل الحسام، وأبرزه في أجمل منزع » حتى قيل: هذا مما أبدع واخترع^(٧٢)، كما عبر عن هذا المعنى ابن خلدون في مقدمته: ^(٧٣)، وجاء أبو بكر الزبيدي ... فاختره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل كله وكثيراً من شواهد المستعمل ولخصه للحفاظ أحسن تلخيص.

كما أفاد من مكتبة الحكم عند التأليف عدد من مؤرخي رجالات الأندلس وبخاصة ابن الفرضي في كتابه « تاريخ علماء الأندلس » فكثيراً ما نرى في كتابه « رأيت بخط الحكم المستنصر » و « قرأت بخط الحكم ... » ومما يزيدنا تأكيداً ما أورده صاحب كتاب المعجب في حق الحكم: « وقلما يوجد كتاب في خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب

٦٨ - عبد الواحد المراكشي : المعجب : ٦١ - ٦٢ ، بغية الملتصم : ١٨ - ١٩ .

٦٩ - المصدر نفسه : ٦٢ .

٧٠ - ابن الأبار : الحلة السرياء : ٢٠٢/١ .

٧١ - أبو علي القاضي : البارع : المقدمة (د) .

٧٢ - المقرئ : نفح الطيب : ٤٧٦/٣ .

٧٣ - ابن خلدون : المقدمة : ٥٤٩ طبعة بيروت .

المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده ، لعنايته بهذا الشأن» (٧٤) .

ويمكننا بعد الاضافة، أن هذه الكتب أغنت كثيراً من طلاب الأندلس عن الرحلة الى المشرق للتعلم على علمائه ، بعد أن أصبح لديهم عدد ضخم من أمهات الكتب ، هذا بدأنا نقرأ في كتب برامج بعض شيوخ الأندلس^(٧٥) انهم أخذوا عدداً من الكتب المشرقية المؤلفة من قبل اساتذة أندلسيين

وبعد فمهما تنوعت فوائد صنيع الحكم المستنصر بجلبه الكتب واقتنائها فإنها تصب في نهر واحد وهو رقي الحركة العلمية في بلاده .

٧٤ - عبد الواحد المراكشي : المعجب : ٦٢ .

٧٥ - ابن خير : الفهرسة .